

نفسية المراهق من مذكراته (٢)*

بقلم

عبد النعم الملحي

مدرس علم النفس بتعليم التربية

سن التمرد

عندما يتأمل المراهق ذاته ، ويدمج فيها النظر . يكتشف على نحو يكاد يكون فجائياً ، عالماً بأسره ، عالماً داخلياً يقابل العالم الخارجي الواقعي ، زائراً بالمشاعر والعواطف والآراء ، وكلها أمور جديدة غامضة . يود لو سبر غورها ، وكشف السر عن سرها . وهو من أجل هذا لا يكتفي بالعكوف على ذاته متأملاً ومحللاً ، ومسجلاً للمذكرات أحياناً ، بل يبدى ميلاً ظاهراً للقراءة ، ولكنه يتخير من الكتب ما يعينه على كشف أسرار نفسه . أو على حل مشكلاته النفسية ، أو ما يقدم له الأجوبة الشافية على الأسئلة الفلسفية التي تعرض له بخصوص الوجود ونشأته ، والإنسان ومصيره . والخائق وحقيقته . . . فهو يفضل القصة العاطفية عن قصص المغامرات التي تروق الطفل قبل سن المراهقة . ويؤثر القصيدة الشاعرية على الوصف الواقعي .

قراءات المراهق إذن تعزز تأملاته ، وتريده إحساساً بالانفصال بين عالمه النفسي والعالم الخارجي . وينضاف إلى عامل القراءة عامل الصداقة أو بالأحرى عامل الحب ، فهو حادث جديد في حياة المراهق . يغمره بفيض من المشاعر الحادة التي تهزه هزاً عنيفاً لما تنطوى عليه من جدة وغربة . وما يمازجها من حزن وخوف وكبت . وأحلام لذيذة وأمان جميلة . أضف إلى ذلك عامل بقضة التفكير الشخصي ، إذ يقف المراهق من الكون موقف التساؤل والبحث والتفكير ، لا يعنيه

* انظر القسم الأول من هذا المقال في عدد فبراير ١٩٥٠ .

أن يكتشف حقائق الأمور بقدر ما يعنيه أن يبحث عنها . هذه العوامل جميعا تذكي تأملاته الذاتية ، وبالتالي تهديه إلى ما تنطوي عليه نفسه من طاقة هائلة ، وإمكانات شاسعة . فلا يلبث تأمله لذاته أن يستحيل إلى إعجاب بها يبلغ حد الزهو والشعور بالتفرد والتميز . وذلك ما جعل الكاتب الفرنسي Maurice Débesse يسمى مرحلة المراهقة أزمة الأصالة^(١) . ذلك أن العكوف على الذات وإن كان يشعر المراهق بالوحدة والغربة . ومن ثمة كان الحزن والشجن ، فهو يشعره في نفس الوقت بقيمته الذاتية . ومن ثمة كان الزهو والغرور .

هنالك يرى المراهق نفسه جديرا بالوقوف من المجتمع موقف النقد : يمتحن نظمه وعقائده وتقاليده . ويفكر في رأى أسرته فيه ، ومعاملتها له . وغالبا ما تكون على عهده بها : غير آبهة به . ولا مقرة برجولته وحقوقه كشخص ذي قيمة خاصة : ويغيطه عجزه عن تحقيق آماله العريضة ، ومثثروعاته الضخمة ، وهو لا يرى هذا العجز راجعا إلى قصور إمكاناته وضآلة قدراته إن قورنت برغباته . إنما يراه راجعا لعقبات تضعها الأسرة في طريقه ، أو يضعها المجتمع على العموم . فتكون النتيجة أن شعوره بالتميز من البيئة يصبح في نفس الوقت شعورا بعدم الوفاق بينه وبينها . ومن هنا تحدث في نفسه الرغبة في تأكيد ذاته ، تأكيدا يتوقف شكله على إمكانات المراهق من ذكاء وقدرة على التكيف ، وعلى موقف البيئة منه . ولكنه في جوهره تمرد على المجتمع خفيا كان أو صريحا . تمرد قد يؤدي أحيانا إلى عواقب وخيمة ، ولكنه في كل حين وسيلة المراهق إلى التكيف في الطور الجديد ، وخطوة لا بد منها تؤدي في النهاية إلى طور النضج واكتمال النمو النفسي . ويكون التمرد على الأسرة ، والمدرسة ، والدين ، والتقاليد ، والدولة . وأحيانا على الإنسانية جمعاء ، وأغرب من كل هذا تمرد المراهق على نفسه كما يحدث في حالات الرهينة والانتحار .

التمرد على الأسرة

لا أقصد بالتمرد تلك الخلافات الناجمة عن تعارض رغبات الفرد مع إرادة الأسرة في الظروف المعتادة ، فذلك أمر قد يوجد على أشده إبان الطفولة ،

ولكننى أقصد به تلك الخلافات التى قد لا يكون لها مبرر من تصرفات الأسرة ، لأنها ناجمة عن سعى المراهق الخفى إلى التحرر من نزعاته الطفلية ، وفرض الروابط الوجدانية القديمة التى تفرض عليه أن يكون تابعا للوالدين . تمرد المراهق إذن هو المظهر الخارجى لمحاولة التحرر من التبعية الطفلية . وتحقيق الاستقلال الوجدانى الذى هو غاية التطور النفسى وسمة النضج وإكمال النمو . إلى هذه الغاية يوجه المراهق طاقته النفسية على غير وعى منه : فلا عجب إذن أن نرى التمرد على أقرب الناس إلى قلب الطفل . وأشدهم عطفًا عليه ، طالما أن هذا العطف قيد وجدانى يعرقل التقدم إلى الغاية المرجوة . وأعنى بها التحرر من التبعية الطفلية : ولا عجب أن يكون شعور المراهق نحو الأب أو الأم - أو من يقوم مقامهما - مزيجًا من الحب والعدوان . أى مصدرًا لصراع نفسى أليم لا يخلو من الشعور بالذنب الناجم عن الرغبات العدوانية تجاه أناس بذلوا له الحب وقدموا الرعاية : ثم صراع آخر بين رغبتين متناقضتين : أولاهما الرغبة اللاشعورية فى الركون إلى ذعة الطفولة وما يحظى به المراهق من رعاية وحب وتحرر من التبعية . وثانيتهما التطامع إلى التحرر والاستقلال وما ينجم عنهما من نضج . وسعيد من المراهقين من يجدى السلطة التى يتمرد عليها مبررًا لتمرده . كالقسوة أو الإهمال لشأنه ، فهو حينئذ بمنجاة من الشعور العنيف بالذنب : أو من يجد من الأسرة عونًا على توجيه طاقته النفسية وجهة إنتاجية . وعلى التحرر فى غير عنف من التبعية الطفلية . تمرد المراهق على السلطة العائلية لا يرجع إلى أسباب فى العائلة ذاتها ، بقدر ما يرجع إلى الأسباب النفسية التى تبرز فى مرحلة الانتقال من الطفولة إلى النضج . وقد تكون أحوال الأسرة طيبة ، والظروف فيها ملائمة للمراهق مما يقلل حدة التمرد ، وقد لا يظهر فى شكل إيجافى صريح ، دون أن يعنى ذلك انعدام عنصر التمرد . فقد تنطوى عزلة المراهق ، وإعراضه عن أى نشاط اجتماعى ، على تمرد سلبي . واحتجاج صامت . وقد لا يجد المراهق سببًا يدعوه إلى الثورة على الأب إن كان الأب صديقًا متفهمًا . فيبقى على علاقته اخادعة به ، مما قد يشعر بانعدام التمرد ، ولكن نظرة فاحصة قد تبين عنه فى شكل مقنع . من ذلك ما لحضته على أحد تلامذته ، إذ كانت علاقته بأبيه على خير ما يرام : وموقف الأب منه موقف الصديق لا موقف السلطان . وكان الأب طبيبًا . فلما حصل الابن على شهادة التعليم الثانوى بتفوق يميز له الالتحاق بكلية الطب التى يحلم

بها جميع طلبة القسم العلمي : إذا به يرفض رفضا باتا - رغم إلحاح أبيه وأساتذته - الالتحاق بكلية الطب ، ويسخر من مهنة الطب ، ويعمد إلى الالتحاق بكلية الزراعة شأن غيره ممن لم يسعدهم الحظ فالتحقوا بها رغما عنهم . وقد لا يتفرد المراهق على الأب أو مهنته : فيحزن هذه النزعة العدوانية إلى ما يعتنقه الأب من عقائد ويخضع له من تقاليد .

وإن القسط الأكبر من سورات الغضب التي تعانيها الأسر من أبنائها في سن المراهقة : تثيره أسباب في غاية التفاهة : تأخر موعد الطعام ، إصراره على أن يستذكر دروسه في أفخم حجرات المنزل دون مراعاة النظام حتى إذا اعترض عليه عد ذلك من جانب الأسرة عتدا واعتداء على حقوقه . وغير ذلك من أمور لا تتناسب مع عنف ثورته . كل شيء في المنزل مصدر ضيق . الأب متحكم ، والأم ظالمة ، والإخوة غيورون : والحقيقة أن الابن ديكتاتور ناشئ بحكم التوتر النفسي الذي يتناوب في هذا الطور : والديكتاتور يقنع بأية غلطة كى ينفس عن النزعة العدوانية . بل إن تسامح الأب ، أو عطف الأم ، قد يصبح مثارا لغضب المراهق وحقنه . وقد عرفت مراحقا ينحو باللائمة على أمه المتحكمة : وينعى عليها ظلمها لأبيه : ولكنه في نفس الوقت دائم الثورة على أبيه لضعفه ورقته . وقد بلغت العلاقة بينه وبين والديه أشد حالات السوء ، وكادت في كثير من الأحيان أن تفضى إلى عواقب وخيمة نظرا لعدم استعداد الأسرة لتفهم مشكلة الابن . ولم يهدئ حدة هذه الثورة غير مرور الأعوام ، واحتذاء الابن إلى منصرفات أخرى لطافته النفسية الخائلة ، ونزعته العدوانية المتفجرة . ولا تخلو مذكرة أى مراهق عمد إلى تسجيل حالاته النفسية ، من نزعة التمرد هذه على أسرته ، مع تفاوت في مثيراتها ، وحدتها ، ومدى ما تنطوي عليه من صواب . وفيما يلي أقتطف بضع فقرات من مذكرات الدكتور طه حسين عن موقف له مع والده في هذه الفترة من حياته (في الثالثة عشرة من عمره) . حين عاد في إجازته من الأزهر ، وكان يصور له اعتداده بنفسه أن يقابله الأهل والأقارب بكل إجلال كما كانوا يلقون أخاه الشيخ من قبل ، ولكن التوم لا قوه من حيث هو غلام صغير دون أن يفتنوا إلى التطور الذي يجري في داخلية نفسه فيصور له أنه أصبح شيخا ينبغي أن يحظى بما يحظى به شيوخ الأزهر من حفاوة وترحيب :

«... وكذا أضح على الصبي ما كان يدير في نفسه من الأمانى ، وما كان يقدر من مستقبل كما كان يستقبل أخوه الشيخ في ابتهاج وخفاوة ، واستعداد عظيم . . .

« ومضت الحياة بعد ذلك في الدار والقريّة كما كانت تمضي قبل أن يذهب الصبي إلى القاهرة ويطلب العلم في الأزهر . كانه لم يذهب إلى القاهرة . ولم يجلس إلى العلماء ولم يدرس الفقه والنحو والمنطق والحديث . وإذا هو مضطر كما كان يضطر من قبل إلى أن يلقي سيدنا بالتحية والإكرام ويقبل يده كما كان يفعل من قبل ، ويسمع منه كلامه الفارغ الكثير كما كان يسمعه من من قبل . وإذا هو مضطر إلى أن يذهب بين وقت وآخر إلى الكتاب لينتقى الوقت . وإذا التلاميذ يلتقونه كما كانوا يلتقونه قديما لا يكادون يشعرون بأنه غاب عنهم ، ولا يكادون يسألونه عما رأى أو سمع في القاهرة ، ولو قد سألوه لحبرهم بالكثير . . .

« وقد استقر إذن في نفس الصبي أنه مازال ، كما كان قبل رحلته إلى القاهرة ، قليل الخطر ضئيل الشأن لا يستحق عناية به ولا سؤالا عنه . فأذى ذلك غروره وقد كان غروره شديدا ، وزاده ذلك إمعانا في الصمت وعكوبا على نفسه وانصرافا إليها .

« ولكنه لم يكد يقضى أياما بين أسرته وأهل قريته حتى غير رأى الناس فيه ولقبتهم إليه ، لا لفت عطف ومودة ولكن لفت إنكار وإعراض وازورار . فقد احتمل من أهل القرية ما كان يحتمل قديما يوما ويوما وأياما . ولكنه لم يطق على ذلك صبرا ، وإذا هو يتبو على ما كان يألف ، وينكر ما كان يعرف . ويتمرد على من كان يظهر لهم الإذعان والخضوع . كان صادقا في ذلك أول الأمر فلما أحس الإنكار والازورار والمقاومة تكلف وعاند وغلا في الشذوذ . سمع سيدنا يتحدث إلى أمه ببعض أحاديثه في العلم والدين ، وبعض تمجيده لحفظة القرآن وحمله كتاب الله : فأنكر عليه حديثه ورد عليه قوله ولم يتخرج من أن يقول هذا كلام فارغ . فغضب سيدنا وشمته وزعم أنه لم يتعلم في القاهرة إلا سوء الخلق وأنه أضاع في القاهرة تربيته الصالحة .

« وغضبت أمه وزجرته واعتذرت إلى سيدنا وقصت الأمر على الشيخ (أبيه) حين عاد فصلى المغرب وجلس للعشاء ، فhez رأسه وضحك ضحكة سريعة

في ازدراء للقصة كلها وشماته بسيدنا . فلم يكن يحب سيدنا ولا يعطف عليه .
 «ولو وقف الأمر عند هذا الحد لاستقامت الأمور : ولكن صاحبنا سمع أباه
 يقرأ دلائل الحبريات كما كان يفعل دائما إذا فرغ من صلاة الصبح أو من صلاة
 العصر : فرفع كتفيه وهز رأسه ثم ضحك . ثم قال لإخوته : إن قراءة الدلائل
 عبث لا غناء فيه . فأما الصغار من إخوته وأخوانه فلم يفهموا عنه ولم يلتفتوا
 إليه . ولكن أخته الكبرى زجرته زجرا عنيفا . ورفعت بهذا الزجر صوتها فسمعها
 الشيخ ولم يقطع قراءته ولكنه مضى فيها حتى أتمها : ثم أقبل على الصبي باسمنا
 يسأله ماذا كان يقول ! فأعاد الصبي قوله . فلما سمعه الشيخ هز رأسه وضحك ضحكة
 قصيرة وقال لابنه في ازدراء : ما أنت وذاك ! هذا ما تعلمته في الأزهر ؟ . فغضب
 الصبي وقال لأبيه : نعم وتعلمت في الأزهر أن كثيرا مما تقرأه في هذا الكتاب
 حرام يضر ولا ينفع : فما ينبغي أن يتوسل إنسان بالأنبياء ولا بالأولياء وما ينبغي
 أن يكون بين الله وبين الناس واسطة وإنما هذا لون من الوثنية .

« هنالك غضب الشيخ غضبا شديدا ولكنه كظم غضبه واحتفظ بابتسامته وقال
 فأضحك الأسرة كلها : احرص قطع الله لسانك . لا تعد إلى هذا الكلام
 وإني أقسم لئن فعلت لأمنسكنك في القرية : ولأقطعنك عن الأزهر ولأجعلنك
 فقيرا تقرأ القرآن في المآتم والبيوت . ثم انصرف ، وتضاحكت الأسرة من حول
 الصبي ، ولكن هذه القصة على قسوتها الساخرة لم تزد صاحبنا إلا عناداً وإصراراً^(١) .
 وينبغي ألا يغيب عن بالنا ما ينطوى عليه شعور المراهق نحو السلطة
 الوالدية من تناقض وازدواج عاطفي ، بمعنى أنه يتمرد عليها ، ويصارعها بالعدوان
 أحيانا ، ولكنه في نفس الوقت في حاجة إلى عطفها ورعايتها ؛ وتتضح هذه الحاجة
 بعد سورات الغضب حين يخلو المراهق إلى نفسه فيعض بنان الندم على ما بدر
 منه : أو حين يضطر إلى الرحيل بعيدا عن الأسرة في مدرسة داخلية مثلا فيكتب
 للوالدين من الرسائل ما يفيض بالحب والشوق .

وهذه فتاة مراهقة تكتب إلينا الرسالة التالية^(٢) :

«إني أود أن أصارحك بمشكلة تسبب لي متاعب جمة في حياتي . وهي
 أنني تلميذة حادة الطباع ، ولا أستطيع ضبط شعوري حين توجه إلى إحدى

(١) كتاب الأيام . الجزء الثاني ص : ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) مجلة الطالبة . عدد مايو سنة ١٩٥٠ . عبد النعم المليجي « مشكلتك وحلها » .

صديقائى أية كلمة تثيرنى . وأحيانا أتشاجر مع والدنى فأوجه لها كلمات لا يليق
بفتاة أن توجهها إلى والدتها ، فتغضب منى ، وفى بعض الأحيان أثور بسبب
أشياء تافهة ، وفى هذه الحالة لا أدري ماذا أفعل ماذا أقول . وعندما أعود إلى
صوائى أندم على ما بدر منى . فهل هناك حل لهذه المشكلة ؟ أكون شاكراً
لو تفضلت بإسداء النصيح إلى . »

وهذا فتى فى السابعة عشرة من عمره يفصح عن نفس الموقف الوجدانى
المزدوج فى قوله :

« شعورى نحو والدى هو شعور حب ، وشعور بعدم إمكان الانفصال
عنها . إنما أشعر بشيء من الحقد والغيرة عندما لا يلتزمان العدل ، فى تلبية مطالبنا
أنا وإخوتى . ولكن توفى والد التتى فانتقلت السلطة إلى الأم : « كما أنه قبل وفاة
والدى كان شعورى نحو أمى بالحب ضعيفا ، وكنت أعتقد أنه يمكن الاستغناء
عن الأم ما دام الأب موجودا . ولكن تغير الحال تماما بعد وفاة والدنى ، فقد
انتقل كل الحب والاحترام والخوف الذى كنت أكنه لوالدى إلى أمى ، وأصبحت
أشعر نحوها بما كنت أشعر نحو أبى فى حياته . »

• • •

ومن مظاهر التمرد على الأسرة ظاهرة واضحة جدا بين سن ١٢ و ١٨ هى
ظاهرة الحرب . وطالما يكون الحرب لغير سبب . وفضلا عن كون الحرب تعبيرا
عن الضيق بالسلطة المنزلية . والتطلع إلى التحرر والاستقلال ، فهو عنصر
لا ينفصل عن النزعة الرومانسية العامة التى تسم مرحلة المراهقة^(١) . وقد لاحظ
كثير من علماء النفس وأطباء الأمراض العقلية أن رغبة الحرب والرحيل إلى بعيد
تظهر عند المصابين بالبارانويا والجنون المبكر^(٢) والصراع . ولكن لا يعنى هذا
أن كل حالة حرب هى بالضرورة حالة جنون . إنما الحرب تعبیر عن الرغبة فى
التخلص من الضغط والتحرر من سلطة الأسرة وتعبير عن القلق الذى يتتاب
المرة فى فترة المراهقة . على أن وفرة ظاهرة الحرب فى طور المراهقة لا تبدو لنا
إن اكتفينا بحالات الحرب التى تمت فعلا ، إنما ينبغى إن أردنا فهمها على حقيقتها
ألا نفعل انحالات التى لم تتم . وإن جزءا لا يستهان به من أحلام اليقظة ليركز

(١) انظر مقالنا فى العدد ٣ من مجلد ٥ من مجلة علم النفس عن نفسية المراهق من مذكراته .

(٢) Dementia praecox

حول هذا الأمل فى التحرر من سلطان الأسرة والمجرة إلى عالم تاء يعيش فيه المرء وحيدا ، حرا من القيود والتقاليد الاجتماعية ؛ فضلا عن هذا هنالك من الأمور ما يقوم مقام الحرب على نحو ما ؛ دون الانقطاع التام عن الأسرة ، من ذلك ما نلمسه لدى بعض المراهقين إذ يصرّون على الالتحاق بالقسم الداخلى بمدرسة ما ، أو الانتقال للعيش فى منزل أحد الأقارب ، أو التطوع للخدمة العسكرية على غير رغبة الأسرة كما حدث إبان حرب فلسطين الأخيرة إذ تقدم عدد كبير جدا من صغار الشبان بطلبات التطوع . كل هذه وسائل تبعد المراهق عن سلطة الأسرة وتجنبه مضايقاتها ، ومن ثمة تجنبه حدة السخط الذى يكنه لوالديه عادة فى هذا الطور من حياته .

وقد يكون من الطريف أن نسجل فى مقال قادم خواطر بعض المراهقين الذين أتاحت لهم تجربة الحرب مرة أو مرات : لنطلع على ما فيها من أحلام وأمان تصور لنا فى وضوح التناقض أو الصراع الوجدانى الذى يترشح المراهق تحت عبئه . فهو هارب من الضغط ، ولكنه يجتر أفكارا لذيدة منها أن الأسرة بأسرها تبحث عنه فى كل مكان ، والأم تبكى حزنا لفراقه ، والأب يسعى هنا وهناك مقتشا عنه ، وقد يقرأ فى الجرائد دعاء منه أن « عد ولك ما تريد » فيشعره كل ذلك بقيمته . وفى الحرب يسعد المراهق بالعزلة التى يهيمو إليها ، والاتحاد بالطبيعة « ذلك الصديق الجديد » ، وفيه إشباع للنهم إلى الكشف والمخاطرة . والخلاصة أن الحرب ينطوى على جميع آماني الشباب فى صورة حسية رمزية عندما يلتمسون ما لهم من قيمة ذاتية .

ولكن هل يعنى تمرد المراهق على الأسرة اقتلاع جذور الحب البنوى من قلبه ؟ وأين ذهب الحب الذى كان يكنه طوال طفولته لأفراد أسرته ؟ لقد أسلفت أن التمرد مظهر خارجى لموقف وجدانى داخلى يمتزج فيه عنصران متناقضان : أحدهما التعلق الطفلى بالوالدين وثانيهما التطلع إلى الاستقلال الوجدانى عنهما . فإن كان التمرد محاولة لتحقيق العنصر الثانى فهو لا يستبعد العنصر الأول . وهذا هو السر فيما يستشعره المراهق من خجل وندم عقب كل ثورة من ثوراته كما أسلفنا . وكثيرا ما ينتج عن وفاة أحد الوالدين أن تزول الكراهية السطحية التى كان يحسها المراهق إزاء المتوفى ، ويكشف عن محبة زائدة (كانت من قبل كامنة) للشخص الآخر الذى لا يزال على قيد الحياة . وهذا يتسر لنا

التماسك الواحداني الذي يحدث فجأة عقب وفاة أحد الوالدين ، ذلك أن الوفاة كفيلة بالقضاء أحد طرفي الصراع في كثير من الحالات . وهو عنصر البغض . الحب النبوي إذن لا يخفى ولكنه يمتزج بعنصر وجداني آخر . وفضلا عن ذلك فهو حب يختص عن حب الطفل لوالديه . لم يعد حبا أناانيا أعمى ، بل يصبح حبا مصطبغا بعنصر عقلي جديد هو الحكم . لا يبقى الأب ذلك الكائن المطلق الذي لا يعجزه شيء . ولا يدانيه أحد في قدرته ، بل هو في نظر المراهق إنسان كغيره من الآدميين قابل للنقد ، غير معصوم من الخطأ . تبدى نقائصه التي كان يخفيها شعور الطفل بقدسيته . ولا تعود الأسرة مؤثلا مقدسا . إنما تبدو مجرد مجموعة عادية من الأفراد . هي أول مجتمع يطبق عليه امرء وظيفة الحكم . ويوجه له النقد ، وهذا أمر طبيعي . الأسرة هي المجتمع الذي يتكون الفرد نتيجة الاحتكاك به احتكاكا مباشرا .

إذن فقد تداعى إيمان المراهق بأبيه ، ذلك الإيمان الذي يعتبر سندا وجدانيا طوال فترة الطفولة ، فكيف يتسنى له أن يواصل نموه النفسي دون هذا السند ؟ ذلك ما سنجيب عنه فيما بعد .

التمرد على السلطة المدرسية

المدرسة سلطة جديدة تشترك مع سلطة الأسرة في وظيفة التربية التي يعاها المراهق ، خاصة وأن التعليم في المدرسة يمس على نحو خفي شعور المراهق بنقصه . فالمدرسة توفر له شتى فرص النقد والمعارضة : المدرسون وأوامرهم ، اللوائح ، الواجبات المدرسية ؛ كل هذه أمور تفرض القيود على المراهق ، وتشعره بالخضوع والنقص إزاء سلطة لا يحتملها في هذا الطور من حياته كما كان يحتملها في الطور السابق . ولذلك كان برما بالنظم ، منتهزا الفرصة للتعبير عن تهرمه ذلك . خاصة إذا كان في قسم داخلي هو بمثابة امتداد لسلطة الأسرة مع زيادة القيود إذ يفصله بغتة عن البيئة العادية : حتى أن المراهق الثائر على الأسرة لا ترضيه هذه البيئة الجديدة التي تحرمه كثيرا من متع الحياة التي لم يكن يتقدها في كنف الأسرة . وتفرض عليه مسلكا معينا ، وتحجزه في مكان واحد ، وتضع القيود على تصرفاته لحكمة لا يلمسها المراهق في سنه تلك المبكرة ، حتى ليصبح ناقوس

الاستيقاظ بالنسبة إليه رمزا للعبودية . والداخلية مهما بلغت من التسامح وتوفر وسائل الراحة والتسلية ، لا يمكن أن تخلو من العيوب ، يتسقطها التلاميذ في كل صغيرة تافهة ، وقد تكون عيوباً أقل من العيوب التي كانوا يرزحون تحت عبئها في المنزل ولكنها مع ذلك مثار لثورتهم . وقد يحقق المراهق تكييفاً خارجياً لهذه البيئة الجديدة دون أن يوقف ذلك من الشعور بالضيق أو يمنع الشكوى والنقد . بل قد ينعم التلاميذ بامتع الأوقات في مدرستهم الداخلية . ولكنهم مع ذلك قد ينهزون هذه الفرصة أو تلك للإفصاح عن تمردهم بأية طريقة من الطرق . وليس خافياً عنا تلك الخلافات التي تنشأ بين المدرسين وبين التلاميذ لأسباب تافهة لا يمكن أن تكون وحدها التفسير الوحيد لتمردهم ، إنما التفسير الحق هو ذلك الغرور الذي يتذرع به المراهق لتدعيم ذاته ، والشعور الحق بالخصومة بينه وبين أستاذه من حيث هو سلطة تهدد هذه الذات . وهذا شاب يعترف بهذه الحقيقة فيقص علينا حادثة من تلك الحوادث الكثيرة التي تقع بين طالب وأستاذه ، يقول :

« كنت دائماً أنتقص من قدره كمدرس ، لا أدري لذلك سبباً ، أهو عدم كفايته ، أم عجزه عن ضبط الفصل أم هو شيء غير ذلك . . . وعلى كل حال فهو رجل طيب ، قد يفوه بالفاظ قد تصيب تلميذا يقبل الإهانة فيمر الموقف بسلام ، وقد تصيب آخر لا يحتمل مثل هذه الإهانات ؛ وقد كنت من النوع الأخير ، ولما كنت أتمتع بمركز ممتاز بين الطلبة والأساتذة ، فإنني لم أقبل مرة ما وجهه إلى هذا الأستاذ من إهانة ، خاصة وأني كنت أشعر أنها صادرة من شخص لا يملأ عيني . كبرت الإهانة في ذهني ، وظننت أنني إذا لم أقنع في الحال من الأستاذ فقد يقلل ذلك من قدري ، فاحتججت وطلبت منه أمام الطلبة أن يعتذر ، فزادني إهانة ، فطلبت منه أن يرافقني إلى حجرة الناظر على قدم المساواة ، فاستكبر ذلك وزاد في الإهانة ؛ ولكنني خشيت أن تسوء سمعني عند الناظر الذي كان يقادري ، فوجدت نفسي ملجأ لا أستطيع رد الإهانة . ولكنني قلت له با شمتزاز : إنني لا أحشاك ، بل أستطيع أن أرد عليك هذه الإهانات ، ولكنك تستعمل سلطتك كمدرس ويكفي أن أقول إن هذا التصرف منك ليس من الشجاعة في شيء . . . »

هذا وصف دقيق لما يحدث من مواقف حرجة يتعرض لها المدرس الذي

يتجاهل نفسية المراهق . ويتضح منه اعتزاز المراهق بذاته . وحساسيته الشديدة للنقد ، واهتمامه الزائد بتأكيد شخصيته لا أمام السلطة فحسب ، بل أمام مجتمع زملائه الذى يعول تعويلا كبيرا على آرائهم .

وهنا يحسن أن نشير إلى أن المدرسية ولو أنها سلطة تغرى المراهق بالتمرد . إلا أنه يجد فى كنفها شيئا كثيراً من المتعة النفسية لا يحظى بها فى منزله . ونخطئ إن كنا نظن أن جميع المراهقين يكرهون المدرسة ، فالواقع أن أغلبهم يحبها . لا من حيث هى مكان للدرس والتحصيل ، ولكن من حيث هى مكان يهرعون إليه حيث الزمالة . وحيث فرص اختيار أب روحى من بين المدرسين . فلتحدث إذن عن عوامل رضا المراهق عن الجو المدرسى بعد أن تحدثنا عن عوامل تبرمه به .

نعلم أن ذات المراهق ضعيفة هشة . وأن أكثر ما يضايقه فى هذا الطور من حياته ما يعتلج فى نفسه من مشاعر النقص : خاصة وقد شرع يطرح روابطه الوجدانية بأفراد الأسرة ، ويتحرر - فى خوف زاشفاق - من التبعية للأب (إن كان ولدا) أو للأُم (فى حالة الفتاة) . وفى هذا التحرر خطر كبير يهدد شعور المراهق بالأمن ، فهو فى أشد الحاجة إلى سند روحى يدعم الذات بدلا من الأب أو الأم . فهو يجد فى أحد زملاء الدراسة تدعيما لذاته ؛ ومن ثمة كانت تلك الصداقات المزدوجة التى تشيع فى أوساط المراهقين ، وتكون أكثر شيوعا لدى الفتيات منها لدى الفتيان ؛ ومن ثمة كان لكلمة « تضامن الطلبة » عذوبة لدى المراهقين ، وسحر عجيب يكفل لهم تماسكا على اختلاف خصائصهم وعقلياتهم ؛ ومن ثمة كانت العصابات التى تجمع بين المراهقين .

وقد سبق القول أن المراهق يحب للعزلة ، كلف بالشذوذ عن المجتمع ، فكيف بنا نناقض أنفسنا ونعيد القول هنا إنه كلف بالصداقة المزدوجة . والانخراط فى العصابات والجماعات ؛ الحق أن ليس فى الأمر تناقض ، لأن المراهق إذ يندمج فى هذه الروابط الاجتماعية لا يصدر عن روح اجتماعية حقة ، وإنما هو يندمج فيها بدافع التلق وسعيا إلى تدعيم ذاته . فالصديق ليس إلا امتدادا لذاته هو ، ورئيس العصابة أو زعيم الجماعة ليس إلا ذاته كما يطمح أن تكون ، والرابطة بينه وبين غيره ليست إلا رابطة التآمر ضد المجتمع ، ولذلك كانت الصداقة المزدوجة تصطبغ بطابع السرية ، وكانت الجمعيات والعصابات ذات نشاط عدائى موجه إلى الجمعيات الأخرى أو إلى السلطات بوجه عام : أسرة

كانت أو مدرسة أو دولة .

أما عن اختيار أب روجي يحل محل الأب كسند روجي : فالمدرسة خير مكان ينهئ للمراهق فرص ذلك الاختيار . وفي الوقت الذي يوفق فيه إلى اختيار مدرس كبطل أو مثل أعلى يوحد نفسه به ، يزداد أمنا ، وتقل ثورته على الأسرة . ولهذا التوحد^(١) أثر كبير في تطور المراهق . وتوجيه طاقاته النفسية : وهو أكثر شيوعا وقوة لدى الفتيات ، اللاتي تعمر مذكراتهن بعبارات التقديس لهذه المدرسة أو تلك : والفرع لفكرة الانفصال عنهن وربما استطعن العودة إلى ذلك الموضوع في بحث قادم .

تحدثنا عن تمرد المراهقين على الأسرة فالمدرسة وبقى بعد ذلك أن نشير إشارة عابرة إلى تمردهم على المجتمع : الدين والتقاليد . والدولة : نظمها ومبادئها السياسية . والعادة أن المراهق لا يتمرد على هذه الأمور إلا في مرحلة متأخرة من المراهقة ، حين يكون قد حقق قدرا من النضج العقلي . وبلغ قسطا من الثقافة ، واستطاع أن يتخذ لنفسه مثلا أعلى أو زعيما واقعيا أو تاريخيا يوجه طاقته الوجدانية إليه ، فيعتنق مبادئه ويعمل جاهدا لتحقيقها . وغالبا ما يكون طموحه غير متناسب مع إمكانياته ، ومثاليته ممعنة في البعد عن واقع الأمور ، وثقته في الأبطال أكثر حماسة مما ينبغي : والمجتمع أو الدولة غير مقرة لتصرفاته ، هنالك يحدث الاصطدام فيزداد برمه بالحياة ، ويحتد تبرمه إن صدم صدمة وحدانية على أثر حادث لا ينتجو منه أغلب المراهقين : وفاة عزيز ، فشل في حب . رسوب في امتحان ، انتقال فجائي من بلد حبيبة إلى أخرى ، اضطراب إلى الالتحاق بمدرسة داخلية ، أزمة مالية إلخ . . . فيتطور شعوره إلى إحساس بأن المجتمع ضده ، وبأنه ضحية هذا العالم الظالم الذي يعمل على تحطيم عبقريته (الموهومة في أغلب الأحيان) ، ينضاف إلى ذلك رغبته المناقضة للعرف . يمنعه الحياء والمثالية الأخلاقية من الإفصاح عنها ، وحاجته إلى الحب والعطف . فتغشاه سخابة من الكآبة والحزن ربما تطورت إلى مرض من أمراض النفس التي تنتاب من المراهقين من لديهم الاستعداد لها .

عبد المنعم المليجي